

العملية التاريخية عند ميشيل دوسارتو

عبد اللاوي عبد الله

"ميشيل دو سارتو"، في المجالات المختلفة التي سار فيها تتدرج بشكل واضح في عمل المؤرخ وتتعامل بجلاء حول إشكالية أساسية هي إنتاج المعرفة، ذلك أن الفعل التأويلي يسكن في قلب النشاط العلمي، لأن عمل المؤرخ يقتضي استدعاء الغائبين والغياب بشكل عام، عن طريق مواد مختلفة كالأرشيف والأثار المادية المختلفة، التي تسمح باستحضار استعجالي للماضي وليس القبض عليه برمته.

تبدأ العملية التاريخية عند "ميشيل دو سارتو" من خلال أسئلة حولها :

ماذا يصنع المؤرخ، عندما يؤرخ؟ على ماذا يشتغل؟ إنه يوقف جولة البحث في قاعات الأرشيف، ويفصل بشكل مؤقت عن الدراسة المباشرة التي تصنفه مع نظرائه، ويخرج إلى الشارع، ويتساءل: ما هذه الصنعة؟ أتساءل عن لغز العلاقة التي أقيمها مع المجتمع الحالي ومع الموت بواسطة النشاطات التقنية وبالتأكيد ليس هناك من اعتبارات مهما كانت عامة أو قراءات مهما كانت بعيدة، قادرة على إزالة خصوصية المكانة التي أتحدث عنها والميدان الذي أتابع فيه التققيب، هذه علامة دائمة، في الخطاب الذي أضع في واجهته المسائل الشاملة ... عند ما يصبح التاريخ بالنسبة للمؤرخ الموضوع الخاص لتفكيره، هل يمكن قلب صيرورة الفهم التي تحمل المنتج إلى مكان ما؟ سيتحول إلى هارب، أو سيخضع إلى فعل الايدولوجيا، أو سيحتاج إلى اللجوء إلى موضع فلسفي آخر. لإعطاء مكانة لعمله، إلى حقيقة مشكلة ومتعلقة من خارج المسارات التي يعتمدها التاريخ، وهي أن أي نظام تفكير يجد مرجعيته في أمكنة اجتماعية واقتصادية وثقافية.⁽¹⁾

هذا البيان الإشكالي، هو شهادة مغايرة عن التقدم الهائل الذي عرفته الدراسات التاريخية مع مدرسة الحواريات وخطابها الجديد حول التاريخ وممارسته وذلك بتأكيد التعدد الذي عرفته هذه الدراسات، وتأكيد كل الانزياحات الاستمولوجية التي سيعرفها الدرس التاريخي، في القطع مع كل ما هو معطى بشكل واحد وكلياني. ولعلنا نعر على قواسم مشتركة "روح العصر"، هذا، بين هذه الأسئلة وهذه التحديات الجديدة وبين المشروع الأركيولوجي "لميشيل فوكو" الذي أكد في كتابه "حضرية المعرفة" أن التاريخ اليوم يكتب بالجمع Pluriel، وأن التاريخ يبحث عن الطرق والمناهج التي تسعفه في أن يتجدد وأن يأخذ مكانا ومكانة له في الحداثة التي ستعرفها العلوم الإنسانية والاجتماعية، وستصير الممارسة التاريخية دون حدود، وذلك بتعدد مواضيع هذه الممارسة.

إن انخراط ميشيل دو سارتو، في هذا المشروع من أجل الربط الضروري بين التفكير في التاريخ والممارسة التاريخية لأنهما يتشاركا في وقت واحد من أجل السؤال والمسألة، لأننا نجد بيني موضوع التاريخ، انطلاقا من رؤيتنا له، وهو التفكير في التاريخ "كممارسة علمية"، لأن العلم في نظره يقتضي:

"كتابة التاريخ"، عبارة تتلازم كثيرا، ويشد بعضها بعض كما أن هناك حبلا سريا بينهما، بين الكتابة و التاريخ، عبارة تقتضي تقصي اللامنطوق واللامكتشف فيها: كيف تصنع الكتابة عند ارتباطها بالتاريخ، وكيف ينتقل التاريخ من مستوى البهامة إلى التساؤل عنه، أي إلى سؤال كيف نصنع التاريخ؟ فلا تعني أبدا كتابة التاريخ وصنعه، بل تعني تثبيته في نصوص، لهذا تفهم كتابة التاريخ إلا في هذا المعنى، لأنها تسعف في إعطاء معنى للعالم من خلال التمثيلات الفردية والجماعية التي تسكن العقل والخيال والذاكرة، كما تؤثر أسئلة وانشغالات الحاضر على كتابة التاريخ، وتسكن الكتابة أيضا المفاهيم المتداولة في الراهن.

"كتابة التاريخ" هو أيضا عنوان لهذه الأسئلة - كتاب "ميشيل دو سارتو" "L'écriture de L'histoire" - Michel de Certeau. ⁽²⁾ فهو يعتبر من القلائد الذين اهتموا بالدرس المنهجي عن التاريخ والكتابة التاريخية بشكل خاص والأسئلة المرتبطة بطريقة: صناعته ومن يصنعه ولبن يصنع؟ لعل جوهر هذه الأسئلة هي التي تشد أطروحات "دو سارتو" في مجمل كتبه ودراساته وحواراته وهو ما أطلق عليه تسمية العملية التاريخية⁽³⁾ L'opération Historique "أو" العملية التاريخية⁽⁴⁾ L'opération Historiographique.

إن العملية التاريخية في البداية هي دراسة ساهم بها "دو سارتو" في الكتاب الجماعي "صنع التاريخ"، وشكلت في الثانية دراسة موسعة ومزينة في كتابه: "كتابة التاريخ"، لأن أفق الأسئلة المرتبطة بالتاريخ وأسئلته لا نستطيع حله بالنسبة له.

يظهر اهتمام "دو سارتو" بالتاريخ من وجهات متعددة، مترحلا في مجالات معرفية مختلفة، إضافة إلى اهتماماته الفلسفية، هي التي قادتته إلى التاريخ: "كنت أتساءل عن العلاقة التي تفصل الخطاب مع بعض الأسئلة: نتي لها علاقة بالواقع، وهذا الشيء الذي ألقى بي في البحث النقدي: وجد التوحد Passion de la singularité، لكن كنت مرتبط بشكل ضيق بالآثار المادية التي تركها المفقودون: رجال وإزمات أخرى غابرة، العمل الأسطوريوغرافي بقي مسكونا بهذه الأسئلة: كنت أخرج من الأرشيف لكي اتعلم التحليل النفسي، ثم السيميائية مع غريماس "Greimas" هذه الدروب التي سعيتها كانت لي بمثابة مسارات للتيه، ترسم لي دائما ويشكل مغاير نفس السؤال: كيف يمكن للخطاب أن يصنع مكانا لقوله؟ أو بدرجة أقل، أين هي غيريته؟ كيف يكون الخطاب موشوما بالشيء الذي يبحث عن تقديمه/إنتاجه؟⁽⁴⁾

من خلال هذا النص "لدو سارتو" تظهر تعدديته، ومن ثم وجده إلى التوحد والتفرد.

لعل أهم عناصر هذه التعددية هو مفهومه للكتابة باعتبارها تجربة تعيد إنتاج تجارب وممارسات فرنية وجماعية فالتصوف والأسطوريوغرافيا والسياسة... لم تكن لتجد إمكانيات تحققها إلا من خلال الكتابة وتحققها الآخر إلا ضمن علاقتها مع المؤسسة، ويقصد "دو سارتو" بهذه الأخيرة بما معناه المجتمع، المؤسسة العلمية، المؤسسة الدينية، القانون... إن أعمال

"إمكانية إنشاء مجموعة قواعد تسمح بتسيير عمليات متناسبة، من أجل إنتاج موضوعات محددة"⁽⁶⁾.

يبين دو سارتو، كذلك، من أجل تحديد العملية التاريخية، بأنها حضور الحاضر. في فعل كتابة التاريخ من طرف المؤرخ، لأن هذا الأخير هو الذي يحرك "ماضي" لا يتحرك من تلقاء نفسه، وفي هذه النقطة بالذات قام ميشيل دو سارتو بتقريب مقولة البنية التي كانت في أوجها مع الدراسات البنيوية واستعمالاتها في مجالات مختلفة كالأنثروبولوجيا والأنثولوجيا والتحليل النفسي؛ من وجهة النظر هذه تقدم لنا المناهج البنيوية، خدمة في غاية الأهمية لإعطاء الوضع العلمي و الصرامة المرجوة إلي الذي أصبح بالنسبة لنا، شرطاً لإمكان الفكر والخطاب⁽⁷⁾

جميع هذه الفتوحات التي ستعرفها الممارسة التاريخية كان لها مصدر وحيد هو انتشار المنهج البنيوي و الدراسات اللغوي لمقاربة الظاهرة الإنسانية بعيداً عن كل المواقف العلمية والوضعية أو حتى تلك الرؤى الفلسفية التي تدعى تملك حقائق متعالية و يتمثل هذا خصوصاً في ادعاءات فلسفات التاريخ التي تريد إعطاء تاريخ كلي، وكل تاريخ بهذا النمط هو التاريخ خطي "Linéaire" وبالتالي يحيل على معنى أحادي مغلفاً ببطانات لاهوتية "كان التاريخ التقليدي، يسعى إلى أن يجعل من نصب الماضي وأثرياته ذاكرة يحولها إلي وثائق، و بحث تلك الآثار على التحكم، تلك الآثار التي غالباً ما تكون خرساء في حد ذاتها أو أنها تقول صمتاً غير ما تقوله جهراً أما اليوم فإن التاريخ هو ما يحول الوثائق إلي نصب أثرية..."⁽⁸⁾

رغم هذا التجديد في المقاربات التي أدخلتها البنيوية في مجالات مختلفة في العلوم الإنسانية، و امتداد ذلك من طرف "ميشيل دو سارتو" إلا أننا نجد يختلف مع مؤرخي التاريخ الجديد و مع مقاربات "ميشيل فوكو" حول هذه الإشكالية الموجودة بين فلسفات التاريخ و التاريخ الجديد يقول: "التاريخ الكلي، كان نوعاً من الخطاب التاريخي الخاص بنظام يختلف عن النظام الخاص بنا، و تحول بالنسبة لنا إلي خطاب مغلوطة، لكنه مغلوطة بالنسبة لمن؟ بالنسبة لنا لأنه بشكل بسيط هو "آخر" مختلف"⁽⁹⁾ لنا نجد يلح على ضرورة رسم العملية التاريخية بين وضعيين بين لغة الأمتس واللغة المعاصرة للمؤرخ فعمله حول الأرشيف الخاص بالمتدين و التصوف المسيحيين في القرن السابع عشر كانت تقوده إلى مرافق عطية الانطباع دائماً بأنه يبتعد كل مرة و الإحساس دائماً بأن الحاضر غائب وأنه للماضي غريبة: "بدأت أكتشف أن الماضي يهرب مني وأيقنت في هذه اللحظة أن هذه الغريبة موزعة عبر الزمن، يولد فيها المؤرخ و أن هذا الغياب هو الذي يتكون منه الخطاب التاريخي"⁽¹⁰⁾.

من أجل هذا كان "دو سارتو" يطالب بضرورة إدخال "الغريبة" L'altérité كإحدى العناصر الهامة في الجنس التاريخي وهوية المؤرخ أي التأكيد على هذه المسافة الزمنية التي هي مصدر لإسقاط و إدخال الناقية التاريخية لأنها هي التي تسعنا في إعادة تشكيل الماضي كما حدث و لكن في إعادة بنائه انطلاقاً من البون Ecart الذي لا نستطيع معالجته Irrémédiable بين الحاضر و الماضي يقول "ميشيل دو سارتو" بلغته الصوفية عن هذا الماضي بأنه "لا يتحرك، ولا يهتز، نحن من يحركه ويهزه"⁽¹¹⁾

إن، العملية التاريخية عند ميشيل دو سارتو لا تقتضي فقط إسقاط رؤانا أو لغتنا الحاضرة على هذا الماضي، ولا إلى تكيس معين للبحث بل إن تدخل المؤرخ في هذا الماضي يعني لديه إعطاء مكانة لهذا الغريبة لأن التاريخ يقتضي مسافة باعتبارها الفعل نفسه لتشكل الممارسة التاريخية و لأن التاريخ كما يصنع يحيل إلى عملية، إلى تداخل بين الماضي والحاضر، فهذه العملية ترسم في مجموع الممارسات الحاضرة ولا يمكن اختزالها فقط في لعبة مرآوية بسيطة بين المؤرخ و الكتل الكثيرة للأرشيف لكن بالإتكاء على مجموع العناصر الفعالة الخاصة بترتيب الفضاء بين الماضي والحاضر بين المؤرخين وبين الآخرين، لأنه فضاء غير ساكن وغير قار.

في تحديده للعملية التاريخية يعمل "ميشيل دو سارتو" على ربطها بثلاثة أبعاد غير مفترقة هي:

- أولاً: أنها وليدة فضاء اجتماعي لذلك نجد يؤكد على لفظاً صناعة Faire و مضمونها السيمانطقي الذي يحيل على الأتية والمؤسسية التي تتحد بشكل متضاد بهذا الفضاء لأن القول التاريخي في نظره "الذي يرفض علاقته بالمجتمع و الخطاب العلمي الذي لا يقول علاقته بالجسد الاجتماعي لا يستطيع أن يقيم علاقة "بالممارسة" Pratique وتتنفي عمليته وهذه مسألة مركزية بالنسبة للمؤرخ و في هذه العلاقة مع الجسد الاجتماعي بالذات يكمن موضوع التاريخ.⁽¹²⁾

نجد، إذن "ميشيل دو سارتو" يلح على ضرورة ربط الممارسة التاريخية بالمجتمع و معرفة القوانين الخاصة بهذا الوسط ضرورية من أجل تعقل جيد للإنتاج التاريخي: أي النص التاريخي.

- ثانياً: يؤكد دو سارتو بأن التاريخ هو ممارسة و ليس كلاماً عادياً أو نبيلاً لتأويل مقطوع عن سياقاته أو قوله بإحباط بل بالعكس من ذلك فهو دائماً موزع عبر تقنيات و حدود تنتقل بين "المعطى" le donné و "المبتكر" le crée بين الوثيقة و بين بنائها بين المفترض الواقعي و آلاف الطرق التي نقول بها، من هذه الحدود يرسم "دو سارتو" مهمات المؤرخ باعتباره هو الذي يجيد مجموعة من التقنيات بداية من الوثائق و ترتيبها و تبويبها ثم توزيعها، من هذا المستوى تظهر جدلية متميزة للموضوع التاريخي "في التاريخ الكل يبدأ بحركة الوضع الجانبي le Mettre a part للجمع و تحويل الوثائق والموضوعات الموزعة بشكل مختلف.⁽¹³⁾

الثورة المعلوماتية و التقنيات العالية التي أصبح يتوفر عليها المؤرخ تساعد كثيراً في تعدد إمكانيات التحليل، لذلك نجد "ميشيل دو سارتو" حذراً في تقديس هذه التقنيات والإحصاء التي قد يلجأ إليها المؤرخ، فهو يدعو المؤرخين إلى إعطاء الأولوية إلى مقولة "المسافة" Ecart و يوضع المؤرخ في أطراف هذه المعقولات المحصل عليها، و ذلك بدعوه إلى العمل و البحث في الهوامش من أجل إبراز الفوارق والاختلافات، وعليه أن يبدأ بالعمل في الهوامش و من هذا المستوى يسم ميشيل دي سارتو المؤرخ بأنه متسكع و شريد Rodeur.⁽¹⁴⁾

بهذه الطريقة فقط يستطيع المؤرخ أن يفتح على موضوعات أدرجت في الهامش نتيجة العقلايات و الوضعية الصارمة التي لم تكن تدخل في حسابها خطابات و ممارسات: الجنون، و العرافة و الثقافة الشعبية و الممارسات الدينية والثقافية... أي مطالبة المؤرخ باستجواب كل الصموتات والتواريخ المكسورة والمجروحة للذاكرة الجمعية.

قد عاد إلى تشخيص جنر الاسطويوغرافيا هو فعل كتابة التاريخ تفسر المؤرخة الفرنسية "أرليت فارغ" Arlette Farge موضوع الكتابة التاريخية عند ميشال دو سارتو بأنها : "البحث عن العلاقة المغمزة بين المؤرخ والموت والحاضر هي علاقة مؤسسية على طريقة المؤرخ وكيف يشتغل مع المجتمع، لأجل أن يشكل الماضي عبر مفردات لا قناع لها بالاتكاء على الشروط الاجتماعية والاقتصادية للأحداث... وكذلك باعتبار المؤرخ هو دائما في الفعل l'Agir " وترى أيضا " أن العلاقة بين الموت والمجتمع تمثل الوجه التراجيدي للمؤرخ وفي نفس الوقت مكان مسؤوليته المدنية لذلك لا يسمح لخطابه إلا أن يجانب ويقارب للحقيقة. (19) لذلك تحدثت لديه العملية التاريخية بين لغة الأوسم و لغة اليوم، الحاضر، وهذا ما حدد به "الحدث" l'événement بأنه ليس هو ما يمكن مشاهدته أو معرفته لكنه ما يتحول إليه خصوصا بالنسبة لنا نحن متمثليه". (20)

عبد اللّوي عبد الله

جامعة وهران

المراجع

- 1-Michel de Certeau ; L'écriture de L'histoire Ed. Folio Gallimard 1975.
- 2- De Certeau / faire l'histoire .op.cit .
- 3- يثير ميشال دو سارتو عنوان السامية في كتابه المذكور عن مساهمته في مكتب الجامعي.
- 4- Régine Robin- Michel de Certeau – débat- dialectiques, Revue n°14.1976 P.45
- 5- Michel de Certeau / Ibid . P 77.78.
- 6- M.de Certeau / Ibid.
- 7- Histoire et structure, débat de M. de ce et P. Nora, in Censure et liberté d'expression ; recherche et débats. Paris 1961 p 165.
- 8- ميشال فوكو/ الكلمات و الأشياء ، ترجمة مطاع صفدي و آخرون، مركز الإنماء القومي - بيروت 1989 ص 124.
- 9- M. de Certeau ; op.cit.
- 10-M. de Certeau ; op.cit.
- 11-Histoire et Structure OP Cité P 168.
- 12- M. de Certeau ; op cit.
- 13-M. de Certeau ; op cit.
- 14-M. de Certeau ; op cit.
- 15- Ibid.
- 16- Ibid.
- 17- M. de Certeau / L'absent de L'histoire/ ed-MAME- Paris 1973 P 09.
- 18- Ibid .P 09.
- 19- Arlette Farge / se laisser surprendre pour l'ordinaire in Michel de Certeau les chemins de l'histoire sous la dir /Patric GRCA Ed complexe et CNRS/ IHTP 2002 P104.
- 20- Michel de Certeau / La Prise de parole-Paris- SEUIL 1994 p 51.

ثالثا: و يتمثل في الإستيمولوجيا التاريخية L'épistémologie historique باعتبار أن التاريخ هو كتابة لذلك نجد دو سارتو يفرق بين الكتابة التاريخية السابقة، والكتابة التاريخية التي تتحدد من خلال " فعل " Acte كتابة التاريخ و من خلال هذا الفعل فقط نستطيع التجليد الجنري للاسطويوغرافيا الكلاسيكية لأن هذه الأخيرة في نظر دو سارتو " ليست هي مقبرة للمؤرخين أو دليل للمشكلات التاريخية لكنها مدعوة إلى أن تتحول إلى بحث حقيقي يأخذ بعين الاعتبار الصعوبات اللغوية واللسانية والإمكانات المالية لأن كل " العملية التاريخية " في نظر دو سارتو هي إنتاج Production لذلك يدعو ميشال دو سارتو إلى التنوع في مقاربات البحث والتحليل من خلال التعددية في المنهج ومقابلة جميع هذه المناهج فيما بينها: التحليل نفسية والايستيمولوجية والتعاقبية أو التطورية لتجلب من الممكن القبض على الواقعة التاريخية في تعدها.

إن الاهتمام الذي يولييه دو سارتو إلى الكتابة التاريخية لا يعنى اقتصار هذه الكتابة في بعدها الخطاب Discursive : تبقى الكتابة التاريخية أو الإسطويوغرافيا محكومة بالممارسة التي تنتج بها وزيادة على ذلك تبقى في حد ذاتها ممارسة اجتماعية". (15)

الكتابة التاريخية عند " ميشال دي سارتو موجودة في علاقة أساسية ومتناقضة Ambivalente ناتجة عن طبيعتها باعتبارها كتابة / مرآة تحيل على الحاضر كخيال منتج للأسرار و المغالطات أكثر من الحقيقة، وهي كذلك كتابة لها قوة في الإنجاز من خلال دورها الكبير في بناء قبر "Tombeau" للميت، أي أنها تشكل طقوسية للميت ودفنه، و هي كذلك كما يلاحظ لها وظيفة ترميزية تمكن مجتمع ما من ماضي يسكن اللغة.

و اعتبار " ميشال دو سارتو" الكتابة التاريخية مثل " قبر للميت" يحوي معنيين إما لتشيده أو لإلغائه، لأنها تعتبر بمثابة " عزاء" Deuil لأن التاريخ يفتح كذلك " على الحاضر فضاءا خاصا لأن التذليل Marquer على ماضي معناه إعطاء مكان للميت، و أيضا إعادة توزيع فضاء الممكنات. (16)

إن التاريخ في نظر " ميشال دو سارتو" هو توسيع إستيمولوجي لفعل الدفن المقدس Scripturaire de la Sépulture لأنه يبقى الأداة الوحيدة للحفاظ على " الذي كان" إلى " الذي لم يكن".

هذا الغائب في التاريخ L'absent de l'histoire أو هذا " الحاضر الغائب" (17) لا يمكن الولوج إليه لأننا لا يمكن سماع أصوات " أحياء الماضي " لأن الأدب ينتج انطلاقا ونهايا من بصمات بكماء، والذي مضى لا يعود أبدا، وصوته فقد نهائيا (18)

من هذا الجانب نجد أن ميشال دو سارتو كان يدعو المؤرخين إلى التفكير النظري حول الوضع الأساسي والاعتباري لتخصصهم لذا نجده